الفقر

صديق الحضارة الاغريقية[1]

كل البدايات غامضة : إما لدقتها وإما لتفاهتها الظاهرية . وهي لا تستعصي على الادراك ، وان أفلتت في الغالب من الملاحظة . لذلك فان مصادر التاريخ ، ينبغي أن تستخلص تتابعاً ، خطوة بعد خطوة . انه يجب أن تفتقد في نبعها الأول ، كتيار في غدير ، ينبع من منحدرات جبل فاهق . هذه الخطوات أو الدرجات هي ما ندعوه الاستنباط . والاستنباط نوعان : يقتضي أنه إما أن يستمد منه أسباب ، وإما أن يستمد منه مسببات .

ان الاستنباطات التي هي من هذا الطراز لا مفرّ منها ، ولكن يغلب أن تكون خاطئة . فانه بالرغم من ان كل سبب أو علة مستقلة ، تحدث باطراد نفس النتيجة ، فان هذه القضية إذا عكست لا تصح نتائجها دائماً . فان كل مسبب أو معلول لا يكون باطراد نتيجة سبب واحد بعينه . والحالة التي يشير إليها اصطلاح « تعدد الاسباب » لها أثر ذو بال ، وليست هي في عالم الفكر ، بأقل منها فعلاً في عالم الكون الطبيعي . ولكن العملية المضادة لهذا السياق ، تائجها أقرب الى الصحة في الغالب . ذلك بأنها تبدأ بجملة من الأسباب ، أي بمتوالية منظومة من العوامل النوعية الواضحة ، ظاهرة أو سهلة الظهور ، مستبانة أو قريبة الاستبانة ، بحيث تكون قد أثرت في الحوادث المراد معالجتها ، وليس فيها من موضع للشك ، إلا في مقدار التأثير الذي لها في هذه الحوادث .

في مثل موقفنا هذا ، حيث تعالج الحياة العقلية العليا في أمة ، ينبغي أن يحتل المكان الأول من اعتبارنا ، حالاتها الجغرافية ، وصفات مواطنها وخصائصها .

---

(١) نقلا عن كتاب Greek Thinkers . a History of ancient Philosophy

By Theodor Gomperz :

Professor of Emeritus at the University of Vienna, and Member of the Imperial Academy: Hon. LL. D., Dublin and Cambridge; Hon. PH. D., Konigsberg; Corresponding member of the British Academy for the Promotion of Philosophical, Historical and Philological Studies.

إلاّس [1] أرض جبلية يحيط بها البحر كأنه منطقة . ومُحْصَلُ ثراها راجع إلى ضيق وديانها النهرية . وفي هذا نقع على أول مفتاح نعالج به أول باب يسلم بنا الى بعض الظواهر الرئيسة لتطور الاغريقي الصحيح .

فمن الواضح مثلاً ان أية بزرة من بزور الحضارة كان يتفق أن تزرع هنالك ، قد تجد مكناً دائماً وظرفاً مواتياً . فان تخومها الجبلية هي بمثابة جدران مشيدة تكسر من حدة تيارات الغزو ، تلك التي تجد في السهول مرتعاً خصباً تعرع فيه . وكل إقليم من أقاليمها الجبلية هو بذاته مستقر مثالي له أثره في تنشئة الثقافة ، وفي كل منها قدرة خاصة على توليد طراز برأسه من طرز تلك التفريدية الفذة القوية الممتازة ، التي انقلبت في النهاية عاملاً مكوناً لحضارة الاغارقة المتنوعة الصور ، العديدة الجوانب ، كما كانت عاملاً معوقاً ، منع قواها السياسية عن التركز والاتحاد ، فاقليم أرفديا مثلاً ، وهو إقليم أصابه الترهل والخدر الريفي كان له نقيضه على الشاطىء المقابل حيث يمتد البحر ، ويلتوي ثم يدور .

شواطىء إلاّس أطول من شواطىء اسبانيا ، ومساحة أرضها أقل من البرتغال . أضف إلى ذلك حالات أخرى كسبت بها تلك الهبات الطبيعية المتفرقة . فان تجارات متباينة الأنواع والضروب ، وصناعات متفرقة الغايات ، كانت معروفة بمقربة منها . فهنالك فلاحون ورعاة ، وقناصون وفلاحون ، تكاثروا ونموا بجوارها ، فأنتج التخالط العائلي بين إلاّس وهؤلاء ، خلال أجيال درجت ، محصلة من المواهب العقلية والكفايات ، كانت ثمرة لفعل التكامل الذي حدث بذلك الاختلاط . أضف إلى ذلك إن حوريّات الماء ، اللواتي أشرفن على ميلاد إغريقية ، لم يكن في مستطاعهن أن يضعن في مهدها من هديّة يحيّينها بها ، أعظم من « الفقر الذي ظل على وجه الدوام ، صديقها الحميم » .

لقد عمل الفقر من ثلاث جهات مختلفات ليقوّي في حضارتها روح الارتقاء . عمل في صورة مضغاس اضطرها إلى إبراز كل قواها . وعمل في صورة مانع صرف عنها الغزو الخارجيّ ، لأن الأرض المحلة لا مطمع فيها ، وهي حقيقة لاحظها عن أقليم « أتيكا » ، فيلسوف المؤرخين القدماء ، وعمل في الثالثة ، وهي الأهم ، في صورة حافز قوي لا يقاوم صرف أهلها نحو التجارة وفن البحار والهجرة وإقامة المستعمرات [2]

(١) إلاس Hellas أو هلس Hellas أو غريسيا Graecia : وقد دلت كلمة إلاس في الجغرافية القديمة عند اليونان على الأمكنة التي قطن الاغريقيون من المدن القديمة حينما كانوا . فكان قورينة في شمال افريقية أو سيراقوز في صقلية أو مرقلوم في ايطاليا أو أزمير في آسيا الصغرى ، كانت تنتوي تحت اسم إلاس ، ولكن جغرافي اللاتين قصروا دلالتها على وسط إغريقية وأخرجوا منها الفيلوبونيز وكل ما يقع شمال خليج مالية . وإلى هذا يشير العلامة برسيان في وصف إلاس

(٢) Cp. Bursian, Geographie von Griechenland, i. 5-8; Kiessen, Italische Landeskunde, i. 216: "Nowhere else in so restricted an area is so striking a variety of

إن الخلجان التي هي أصلح الموانىء على شبه الجزيرة الاغريقية ، تواجه منافذ الشرق ، والجزائر والجزيرات المتناثرة في هذا الصقع ، هي بمثابة درجات من الصخر ، تسلم إلى مقار الحضارات الآسيوية القديمة . يجوز أن يقال إن أغريقية تنظر إلى الشرق وإلى الجنوب ، وتستند ظهرها إلى الغرب وإلى الشمال ، بما يقوم فيهما من حالات أشبه بأن تكون همجية .

حالة أخرى ، هي من حالات الحظ الاستثنائي الطيب ، يمكن أن تضاف إلى تلك الاستثمارات الطبيعية . قامت إغريقية الطفلة في جانب ، والحضارات التي تمجو الذكريات عن تلمس بدايتها في جانب إزاءها . فمن ذا الذي قسم له أن يربط بينهما ؟ لقد وجدت الحلقة الرابطة ، وكأنها اختيرت عمداً لتقوم بتلك المهمة التاريخية . أولئك المخاطرون الأهداء الأيدون الذين اقتحموا البحر ، تجار فينيقية ، الذين هم إن لم يكونوا من شعب ذي شأن من الناحية السياسية ، فانهم من شعب ملىء جرأة وصلابة وطموحاً في الكسب . حدث إذن أن الأغارقة قد استمدوا عناصر الثقافة من بابلونيا ومصر ، من غير أن يدفعوا ضريبة الاستقلال عن بقية الدنيا . والفوائد التي تجنى من مثل هذا الظرف ظاهرة لا تحتاج إلى بيان . فان الأمة المحمودة مثل ذلك تهيأ في العادة بمنهج ارتقائي ثابت الخطا مطرد السوق ، وتطور متصل غير منفصم الحلقات ، ومناعة نسبية عن التضحية بمواردها القومية . وإذا أردت برهاناً على صحة هذه النظرية ، فاعتبر مصير الكيلت Celts : والجرمان الذين استعبدتهم روما في البرهة التي مدنتهم فيها ، أو اعتبر مصير القبائل الهمجية في عصرنا هذا ، وهي التي تتلقى مراحم المدنية من يدي أوربا الكلية القدرة ، وكثيراً ما تنزل بهم النعمات .

ومع هذا فان المؤثر الفاصل في نشوء الحياة العقلية عند الأغارقة ، ينبغي أن ينتقد في نظامهم الاستعماري . فان الاستعمار الأغريقي قد وجد في كل وقت ، وفي ظل كل ضرب من ضروب الحكومة . فالملوكية ، وقد قطعت عهدها في تناحن مستمر ، كثر ما شهدت متوطنين أخلوا مواطنهم لقبائل مهاجرة ، باحثين عن مواطن جديدة وراء البحار . وحكومة الأقلية التي قامت على التحالف الثابت بين نبل المولد وامتلاك الأرض ، مضت على سياسة إبعاد أولئك « السادة المساكين » لأنهم رمز القلق ومبعث الفوضى ، فزودوهم بأملاك في بقاع أجنبية ، حيث تبعثهم إليها وهيكل تنابذ الأحزاب ، وتطاحن العصبيات والفساد والقتل .

في نفس ذلك الوقت ، تطلب نماء التجارة البحرية عند الأغارقة ، وتكاثر الانتاج

bays, promontories, mountain ranges, valleys, plains, highlands of all kinds to be found... Cp., too, G. Perrot, Révue des Deux Mondes Feb., 1892 : Le sol et le climat de la Grèce," especially p. 544. For the "Poverty... her familiar friend... cp. Herodotus, vii. 102; and for the most philosophical historian....., cp. Thucydides, i.2.

عن « الفقر وانه صديق الحضارة » انظر هيرودوتس ج ٧ : ص ١٠٢ ، « فيلسوف المؤرخين القدماء » : ثوتوديدس : انظره ج ١ ص ٢ .

الصناعي ، وزيادة عدد السكان ، ضرورة تأسيس مراكز ثابتة للتجارة وطرق آمنة لاستيراد مواد الغذاء . استخدمت هذه المسالك بذاتها ، وبخاصة في ظل الديمقراطية ، لاغاثة المعدمين ذوي الخصاصة ، وتسريح الزائد من السكان . بذلك ، وفي زمان مبكر من بداية تحضرهم ، نشأ الاغارقة تلك الحلقة العظيمة من المستعمرات التي إمتدت من مواني القوزاق على نهر الدنّ إلى الواحات الصحراوية ، ومن شواطئ البحر الاسود الشرقية ، إلى سواحل إسبانيا .

قد نقول أغريقية العظمة ، إذا قصدنا بذلك الجزء الآسيوي من جنوبي إيطاليا . أما إغريقية العظمى ، فمدلولها مجموعة المستعمرات في خارج بلاد « إلاس » . إن عدد هذه المستعمرات وتنوعها ، قد حققا بطريق عملي ، ما يتوقع عادة من نشاط يصيب أيما شئت من بزور حضارية ، فتفرخ وتثمر ، إذا ألقيت في أرض ملائمة . ولقد ساعد على تحقيق ذلك والتوسع فيه ، وبلوغه درجة من الرقي والبهاء نادة باهرة ، طبيعة تلك المستعمرات ، والاسلوب الذي اتبع في تأسيسها . فان مواقعها قد اختيرت بعناية ، فقامت في نقط ساحلية منحت التجارة أعظم اليسر ، ووهبتها أضخم المرافق . وكان المهاجرون أنفسهم في الاكثر من عنصر الشباب ، وفيهم نزوع إلى الخشونة وميل إلى الجرأة ، فورّثوا أخلافهم ، صفاتهم الفردية العليا . أما أولئك الذين هاجروا من بقاع لم تضف الطبيعة على أهلها مثل ذلك من الصفات ، والذين عاشوا في ظل السلطة والسيادة ، وفي حمى الفراغ والخمول ، فلم يدفع بهم من دافع إلى مغادرة مواطنهم ، غير الحاجة والفقر .

زد إلى ذلك إن دولة مدينية (City-state) بعينها ، إن بادرت إلى تأسيس المستعمرات ، فانها كانت تتزود في الغالب ، بطائفة كبيرة من الاجانب ، فيقع بذلك بين القبائل الاليلية المتفرقة تلاقح ، يعززه فيما بعد تلاقح يشوبه ، بدماء غير إليلية ، بحكم الضرورة التي تفرضها زيادة عدد الرجال زيادة كبيرة على عدد النساء ، بين رواد المهاجرين لدى أول هجرتهم .

بمقتضى ذلك ، كانت كل مستعمرة كأنها بوتقة أدت غرض التجربة والاختبار . فالعناصر الاغريقية وغير الاغريقية ، ظلت تتلاقح بنسب مختلفة ، وكانت نتيجة هذه التجربة ، ما شهدناه مطبقاً في حياتهم العملية من قوة الاحتمال والمقاومة . أما العادات المحلية والاساطير القبلية ، فزالت بفضل ما اتصفت به الجاليات من حس كان أرهف ، وذوق كان أسمى . واتصال هؤلاء بحضارات أجنبية ، مهما كانت حظة من حيث النماء والتطور ، ما كان ليحدث إلا إتساعاً في الافق العقلي ، بعيد المدى ، قصيّ المرامي[1] .

(1) On the extension of the geographical horizon, cp. further H. Berger, Geschichte der wissenschaftlichen Erdkunde, i. 16. Ed. Meyer, Geschichte Egyptens, 307. Settlers from Samos in the Libyan Desert are mentioned by Herodotus, iii, 26.

ذكر هيرودوتس أن مستعمرين من ساموس هبطوا صحراء لوبيا : ج ٣ ص ٢٦